(١٣)

بـلدنـا والفسـاد*

أذكر أننا كنا صديقين من أيام الصبوة، فقد كنا زميلين فى المدرسة الثانوية، وكنت أعجب به، فقد كان ميسور الحال، حسن الهيئة صادق الكلام، حسن المعاملة، وكانت لديهم سيارة لأن أباه كان تاجرا كبيرا، وكنا نترافق حتى باب المدرسة، ثم يركب هو السيارة، وأمضى أنا إلى بيتى على قدمى، وأذكر أننى كنت فى هذه السن «أركب» الفول السودانى، كنت أشتريه من دكان قرب المدرسة وأتسلى به طول الطريق..

وكنت أزوره فى بيته، وكان بيتا كبيرا جميلا، له حديقة وبوابة ضخمة عليها بواب، وأذكر أن البواب ما كان يسمح لأحد بأن يخطو داخل البيت إلا بعد أن يدخل ويستأذن مهما كنت معروفا له. تلك كانت التعليمات لديه. ولم يتم دراسته، فقد توفى أبوه تاركا المتجر الكبير له، ولأخواته البنات، فترك المدرسة وانصرف إلى التجارة، ونجح فيما أظن، فإن العلاقات انقطعت بينى وبينه من ذلك الحين لأن كلا منا سار فى طريق.

والتقينا بعد سنوات اتصل بى فى الجامعة يتوسط لواحد من أبنائه، فإذا أنا أمام رجل غنى جدا، حتى الغلام الذى كان يرجو دخوله الجامعة كان يمتلك سيارة، وأنا بطبعى متطلع، أى أننى أتمسك بأن أفهم ما أرى، فلما زارنى الأب فى الجامعة قلت له:

– يا فلان أنا أعرف أنكم أغنياء من الأصل، هكذا كنتم أيام كنا فى الثانوى، ولكنى أراك الآن غنيا بشكل غير معقول.

فنظر إلى طويلا ثم قال:

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٢ أكتوبر ١٩٨٩م.

– هى مسألة «نق» إذن؟.

– أى نق يا صديقى؟ هل تظن أننى أسألك لأننى أستكثر مالك؟ صدقنى إن المال كله لا يعنينى فى كثير، فنحن فى الجامعة بخير والحمد لله، ونحن لسنا فى حاجة إلى مزيد من المال، ولكنا أنا وأنت أصدقاء من زمن طويل، وأنا رجل أحب أن أفهم.

وماذا تريد أن تفهم؟.

– أقول إنك حر فى أن تتكلم أو لا تتكلم.. هذا شأنك، ولكنى أريد أن أفهم كيف يتجمع هذا المال الكثير جدا.

– إنها التجارة يا عزيزى: أحيانا أنت تشترى البضاعة وفجأة بعد ذلك يرتفع سعرها عشرة أضعاف.

قلت: هذا يكفينى، إننى غير مقتنع، ولكنه يكفينى، لأن ظاهرة ارتفاع الأسعار فجأة كما تقول عشرة أضعاف ليست محلية، إنها فى العالم كله، التجارة كلها تغيرت، والتجار لم يعودوا هم التجار الذين عرفناهم فى الماضى، حتى البنوك الغربية تغيرت طبيعتها، فلم تعد تستطيع معاملتها على الأساس المعقول الماضى، وأنت ترى أن اتحاد البنوك الغربية قد تحول إلى عصابة رهيبة تمسك برقاب الدول المدينة، ولو استطاعت أن تخنقها لفعلت، ولكنها لا تريد لأنها تضاعف أرباحها، وتحصل تلك الأرباح بصورة تغطى الدين نفسه، ويظل الدين كما هو، وهذه البنوك مستعدة لمواصلة الإقراض مع عجز المدينين عن السداد، ولكنها لا تعرف كيف تجد طريقة لإيقاف الدول المدينة على أقدامها للاستمرار فى الاقتراض، وقد كنت أحسب أننى وحدى لا أفهم الاقتصاد المعاصر، ثم تبينت أن الدنيا كلها لم تعد تفهم الاقتصاد، أو أننا فى عصرنا هذا أمام طراز جديد من الاقتصاد لا ندرى كيف نسميه، على أى حال تعال ننظر فى حكاية ابنك، ودعنا من الاقتصاد، فأنا كما قلت لك لا أفهم فيه،

ولكن ذهنى لا يستريح لأننا لابد أن نفهم عصرنا، ولا أدرى إن كان المسئولون فى الدول الدائنة يحرصون على أن يفهموا، لأن الذى يهمهم فيما أرى هو أن يظل طريق القروض مفتوحا، وأن نظل نحن فقراء لكى نستدين، إن المسئولين فى البلاد الصغيرة يستمرون فى الاقتراض ربما كان السبب هو أنهم عاجزون عن مداواة اقتصاديات بلادهم، ولا مخرج لهم فى هذه الحالة إلا القروض، فهى مطلب سهل، وهناك فى الغرب ناس مستعدون للإقراض دائما، لأن فقر الآخرين هو رأس مالهم، وهناك وسائل معقدة للعمل الاقتصادى فى أيامنا، والمهم لدى الدول الكبرى أن تظل أموال الدول الصغرى فى الانسياب إلى الدول الكبرى، وهل تصدق مثلا أن الموتور الصغير الذى كنا نشتريه فيما مضى بخمسين جنيها أصبح ثمنه اليوم ثمانمائة دولار؟ وهذا الاضطراب فى الأسعار الذى جاءنا من الغرب كان بداية الفوضى التى شملت ميدان الاقتصاد كله.

ذلك أن الغربى سواء الأوروبى أو الأمريكى ليس قنوعا فى حياته، فهو بطبعه شديد الطموح إلى ما يمكن أن نسميه بالترف، ونحن الذين عشنا فى الغرب مع أهله نعرف أن ما نسميه نحن بالحياة البسيطة يعتبر فى نظرهم حياة فقر وتعاسة، وفى عصرنا هذا زاد ميل الغربيين إلى الترف، وكثرت المستحدثات فى حياتهم، فأصبحت حياتهم غالية التكاليف فعلا، ولهذا فهم يرفعون الأسعار، ويواجهوننا بالأسعار المرتفعة، على أنها حقيقة لا فرار منها، ومن هنا فإن التاجر المصرى الذى يقول إنه يصدر ويورد ، وهو فى الواقع يستورد فقط ، يقبل الوضع ويفرض الزيادة علينا، وشيئا فشيئا يفقد تجارنا السيطرة على الأسعار، ويحسون أنهم لابد أن يرفعوا الأسعار، ويفرضوا هذه الزيادة علينا، وهم واثقون من أننا لن نناقشهم، وأنا كنت أشترى رزمة الورق المسطر بحوالى ١٣٠ أو ١٤٠ قرشا، فأصبح ثمنها اليوم حوالى خمسة جنيهات، وهذا سعر غير معقول،

وليس من عادتى أن أناقش البائع، ولكنى اضطررت إلى الشكوى عندما اشتريت الرزمة الأخيرة فأطلعنى البائع على فاتورة الشراء، وإذا به قد اشتراها بما يزيد على أربعة جنيهات بقليل، قلت له:

– هل لا يوجد إلا تاجر ورق واحد؟..

– إنهم كثيرون، ولكن هذا هو السعر الذى يبيعون به جميعا، لأنهم كلهم يشترون من تاجر إيطالى واحد، ولا أحد عندنا يفكر فى مناقشة هذا التاجر، إنهم يذهبون إلى إيطاليا وينزلون فى ضيافته ويتمتعون بخيراته، والنتيجة أنهم لا يجرؤون على المناقشة، ثم لماذا يناقشون إذا كانوا يدفعون له، ويأخذون منا؟ وستستمر الزيادة طبعا لأن حياة الأوروبيين تزداد ترفا، ونحن فى النهاية ندفع لهم تكاليف هذا الترف..

□□□

ومن أسابيع ضبطوا لحما فاسدا مصدرا من هولندا إلى بلاد غرب أفريقية، والفساد أتى من إصابة الحيوانات بالسموم النووية فى إقليم شيرنوبل، وقد دمرو جزاءا من اللحم الفاسد، أما الباقى فلا يدرى أحد أين ذهب، وهذا يدلنا على أن الضمير تغير فى الغرب تغيرا خطيرا، ونحن كنا فى الماضى نتعلم التجارة والمعاملات من أهل الغرب ونستفيد من ذلك، أما اليوم فقد تغير الأمر تغيرا تاما، ومعظمهم فى الغرب أصبحوا لصوصا، وفى كل يوم نسمع عن فضيحة فى بلد أوروبى أو أمريكى حتى أصبح من العسير فعلا أن تثق فى أن التاجر أو الصانع الغربى الذى تعامله شريف، وانتقلت العدوى إلى تجارنا لأنهم فى الغالب يتعلمون من أهل الغرب، وشيئا فشيئا فقدنا كلنا ذلك التوازن الذى كان يسود جو المعاملات، وكل شىء على أى حال فى صعود، ومن أسبوعين اشتريت – من الجمعيات الحكومية – أشياء بخمسين قرشا فاشتريتها هذا الأسبوع بخمسة وسبعين، وما كان بخمسة وسبعين أصبح بجنيه، والظاهرة التى

تثير الغضب فعلا هى أن بعض الجهات أصبحت تصارحك بالقومسيون الذى لابد أن تأخذه، ورجل أعرفه باع صفقة بأربعين ألف جنيه، وعندما أتت السكرتيرة لتوقع معه العقد قالت إن القاعدة عندنا أن نأخذ عشرة فى المائة، فقال لها:

– مش معقول، إن هذا هو الربح الذى أقدره لنفسى. فقالت السكرتيرة تستطيع أن ترفع السعر إلى خمسين ألفا.

– وتوافقون على هذا السعر؟.

– سأوقع معك العقد عليه، المهم أننا لا نستطيع العمل بدون هذه العمولة، ونحن فى الإدارة كثيرون ولابد أن نعيش وأنت ترى الأسعار.

قال: إذا كان الأمر كذلك فلا مانع عندى.

ثم استأذنت السكرتيرة وتكلمت فى التليفون مع رؤسائها، ثم وضعت السماعة وقالت: وما رأيك فى أن ترفع الثمن إلى ستين ألفا؟.

يقول صديقى: وعقدنا الصفقة بستين ألفا، وصدقنى إننى غير مستريح، لأننى الآن لص بالنسبة للعميل الذى يشترى البضاعة بالقطاعى آخر الأمر ولكن قل لى ماذا أعمل؟.

والحقيقة أن هؤلاء الناس زرعوا فى نفوسنا خلقا لا نعرفه أو لم نكن نعرفه، وشيئا فشيئا انتشر هذا النوع من الفساد، وأصبحت الغالبية لصوصا بإرادتهم أو بغير إرادتهم، وكل ذلك بدأ فى أيام الانفتاح، ولا أظن أن الرئيس السادات كان يقدر أن هذا كله سيحدث. لقد كان حسن النية، ولكن الكثيرين من التجار لم يكونوا كذلك، وزادت المسألة سوءا بسبب البنوك الكثيرة الجديدة التى أنشئت، والبنوك منشآت عظيمة الأرباح ولكنها أيضا شديدة الخطورة، وإذا أنت استثنيت البنوك الأربعة الأساسية فى مصر، وهى الأهلى ومصر والقاهرة والاسكندرية، فأنت فى الواقع لا تدرى كيف تتعامل، وأنت تسمع عن الذين أخذوا من البنوك ملايين

دون ضمانات كافية، وانتهى الأمر بكوارث، وليس من الضرورى أن نشك فى ذمة أصحاب هذه البنوك، فقد تصرفوا فى الغالب بحسن نية، ولكن البنوك منشآت خطيرة، وهى تحتاج إلى أكثر من حسن النية، والغالب أن الطمع فى الكسب الكبير والسريع هو السبب فى تلك الكوارث، وأسوأ ما فى الموضوع هو أننا نحن الجمهور يسوء ظننا ويستولى علينا الخوف والشك، وقد كنا فيما مضى نقول إن صغار الموظفين عاجزون عن السيطرة على ميدان الاقتصاد، فأصبحنا اليوم نقول: إنهم جزء من الفوضى التى تسوده، ولابد على أى حال من دراسة موضوع الاقتصاد فى بلادنا ونصيب الحكومة فيه دراسة شاملة حتى تتبين أسباب ما يعانيه من مواضع النقص، وهنا فقط يمكننا العلاج، لأن الشكوى فى ذاتها تؤدى بطبعها وتكرارها إلى زيادة الفساد، لأننا نحن المصريين لسنا - بطبعنا - فاسدين فلابد أن هناك عوامل من خارج مصر تؤدى إلى الوضع الحالى.

□□□

إن هذا الوضع الحالى غير مقبول، وإلى يومنا هذا لم أجد مواطنا واحدا يقبله، ولكنى كذلك لا أعرف محاولة جادة للعلاج وخاصة من جانب الحكومة، لأن رجال الحكومة يرون أنهم على حق، وأحيانا نجدهم يظنون أن الذى يفعلونه هو خير ما يمكن عمله، وهم طبعا لا يستطيعون تأييد كلامهم هذا، ولكنهم يقولونه لكى يهربوا من المشكلة، وفى الغالب فإن هذا كله يفرض عليهم، ولا فائدة على أى حال فى مناقشة موظفى الحكومة فى هذا الموضوع أو غيره لأن فيهم جرأة عجيبة فى الكلام. والواحد منهم يتولى الوظيفة اليوم ويبدأ فى الدفاع عن الإجراءات التى تتخذ فيها منذ اليوم الأول لعمله فيها، وهذا كلام غير معقول، ولكنه هو الجارى مع الأسف والديمقراطية الجارية فى بلادنا اليوم عجيبة، لأن الذين يطبقونها ويزعمون أنهم رمز الحرية لا يعترفون لا بالديمقراطية أو الحرية، والحزب هو الحكومة، ومن هنا فهو ليس رقيبا عليها ولا مصلحا

لها، وأنا من أشد الناس حرصا على رؤية ما يعرضونه علينا من مشاهد المناقشات فى مجلس الشعب، وباستثناء الجلسة التى لا تنسى والتى حدث فيها تضارب بالأيدى بين نائب ووزير، لا أذكر أننى سمعت مرة مناقشة جادة لموضوع الاقتصاد وسلامته، ومن هنا فإننى أصبحت أؤمن بأننا لو أردنا أن نصلح الاقتصاد فعلا ونوقف تيار الشك الغالب على كل شىء فلابد من سلطة جديدة تراقب وتحاسب وتصلح، أما النظام القائم حاليا فلا أمل فى الإصلاح من ناحيته، وأظن أن هذا واضح، ومع ثقتنا التامة فى كفاية الوزراء فإننا فى النهاية لا نعرف من أين يأتى الفساد.

والحقيقة هى أننا اليوم فى حاجة إلى حزب جديد لأن البلد مازال إلى يومنا هذا بخير، وما يقال عن انتشار الفوضى واللصوصية فى كل ميدان مبالغات لا وجود لها فى الواقع، وكل ما تسمع من الحكايات فهو إما حوادث فساد صغيرة لا تعنى أبدا أن هناك فسادا واسع المدى كالذى نجده فى الكثير من بلاد الغرب، وإما أنها أكاذيب وادعاءات لا أساس لها من الصحة، والناس يرددونها دون تحقيق، لأن الكلام سهل، والفساد الحقيقى الكبير غير موجود، والموجة التى اجتاحت البلاد فى أول عصر الانفتاح قد انتهت فيما أظن، زمن واجبنا أن نقرر أن الحكومة نجحت فى ضبط العمل فى البنوك الجديدة ولم يعد من السهل على أى نصاب أن يحصل على بضعة ملايين دون ضمانات من أى بنك، ثم يفر إلى الخارج، ولكن المأساة الحقيقية هى هذا الغلاء غير المعقول الذى يتزايد يوما بعد يوم، ونحن عاجزون حاليا عن إيقافه، ولكن تركه يسير فى طريقه دون أى علاج خطر جسيم، وقد قلنا إن العامل الأكبر فيه يعود إلى الغرب، ولكن لا شك أن هناك أيضا ناسا أشرارا يستفيدون منه، ويعملون على استمراره ولا معنى أبدا لأن تستمر أسعار المأكولات والملبوسات فى الزيادة على النحو الراهن، ونحن الآن نجتهد فى مواجهة هذه الزيادة، ولكن اليوم الذى نعجز فيه عن المواجهة قادم ولاريب، ولابد أن نفكر فى هذا

من الآن، ومن المستحيل أن ندع بلدنا هذا الذى اشتهر بالصدق والأمانة وسلامة التصرف ينحدر إلى مستوى البلاد الكثيرة العاجزة عن مواجهة الفساد الذى شمل كل نواحى الحياة فيها، وكلما حاولت حكومة إيقافه من ناحية انفجر من ناحية أخرى حتى أصبحنا نسمع اليوم عن عجائب فى تلك البلاد، ولا أريد أن أضرب هنا أمثلة حتى لا أمس بلادا تربطنا بها علاقات صداقة، ولكن القارئ يعرف ماذا أعنى، ويؤمن مثلى بأن مصر لا يمكن ولا ينبغى أن تصل إلى ذلك المستوى، لأننا تعودنا على أن نرى بلدنا محترما فى هذه الدنيا، ونحن المصريين محترمون، وفينا حياء، ولا نقبل التعامل على أساس غير شريف أو غير نظيف، ولهذا فإن الأمل عظيم فى الانقاذ، والناس عندنا فيهم خوف وحياء، وإذا نحن وقفنا فى حزم أمام أى مفسد فلن يلبث أن يتراجع، وقد حدثت بينى وبين أحد التجار فى الشهر الماضى مناقشة عنيفة حول الأسعار التى طالبنى بها، فقال الرجل: لماذا تناقشنى إذا كان مندوب الحكومة قد وافق على هذه الأسعار؟ قلت: إذن فأنا أناقش مندوب الحكومة هذا، ومضيت إليه وواجهته بما يقول التاجر فأنكر أشد الإنكار، ولاحظت من كلامه أنه استحى، فشددت عليه فخاف وقال إنه سيمر على هذا التاجر، وينظر الأمر معه، وذهب بالفعل ولكنه عجز عن أن يقنع التاجر بالتخلى عن هذه الزيادة، ولكن يبدو أنهما تفاهما على معاملتى أنا وحدى معاملة خاصة، وحصلت على البضاعة بسعر معقول، ورجانى التاجر أن يظل الأمر سرا بيننا، فقلت له: يا أخى هذه تجارة، والتجارة لها قواعد وأخلاقيات، ومن غير المعقول أن تلتزم بهذه القواعد والاخلاقيات مع عميل واحد، وأنا على أى حال لن أتعامل معك بعد الآن، ولكنى سأقول لكل الناس إننى أوقفت التعامل معك، ولابد أن يعرف الناس لماذا اتخذت هذا الموقف لأننا مواطنون إخوان، ولابد أن يسير التعامل معنا على قواعد وأخلاقيات واحدة، وأنت طبعا لن تخسر إذا اتبعت تلك القواعد مع عملائك كلهم، ولكن أرباحك ستقل، ولكن كيف تقبل أن تحصل من

الناس على مال هو ليس من حقك؟ وهل تظن أن هذا الطريق يمكن أن يعود عليك وعلى أولادك بالخير؟..

□□□

الحقيقة هى أن الفساد الشامل الذى يتحدث عنه الناس غير موجود فى بلادنا إلى اليوم، ولاشك فى أن هناك ناسا فاسدين، ولكن فى حدود المعقول أو المحتمل، ولكننا لابد فى الوقت نفسه أن نتخذ إجراءات تنقذ البلاد، فإن الحكومة العالية.. الرياسة والوزراء ورؤساء البنوك على مستوى طيب، وحرام أن نتساهل مع الصغار ونسهل لهم الرشوة والفساد، وهذا لا يتأتى إلا إذا جاء تنظيم سياسى جديد فى مصر يؤيد الصالحين الكبار يعاقب الصغار من أهل الفساد، وربما احتاج الأمر كما قلت إلى حزب جديد، لأن الأحزاب القائمة اليوم أصبحت كلها تقليدية، وهى منذ البداية لا عبقرية فيها ولا قوة، ونحن فى الواقع فى حاجة إلى فكر سياسى وإدارى عبقرى وقوى، وهو موجود فعلا ولكن أصحابه ينبغى أن ينتبهوا إلى أنه آن الأوان ليضعوا أيديهم بعضها فى بعض ويواجهوا مبادئ الفساد بقوة وشهامة، وماذا مثلا فى أن نبدأ بإلغاء الدعم إلا على الخبز، الخبز وحده وقصر المعاونات الحكومية على دعم الصناعة، وإدخال تعديل جوهرى على نظام التعليم، لأن المجانية أفسدت التعليم؟ وطريقة تعيين أعضاء هيئات التدريس فى الجامعة على أساس درجات الليسانس أو البكالوريوس لا يمكن أن تؤدى بنا إلى مستويات عالية من الكفايات العلمية .